شهادات «أنصار 3»

- مقدمة
- محمد الحوراني
- نبهان خريشة
- لؤي عبده
- وسيم الكردي
- عبد الناصر صالح
- محمد روحي

مقدمة

غير بعيد عن الانتفاضة بمرحلتيها، يقع معتقل «أنصار3» أو «كتسيعوت»، حين يصبح الانفجار الشعبي «مكاناً» استثنائياً، وهو ما حدث فعلاً! سيكون معتقل «أنصار3» والتجربة التي خاضها مناضلو الشعب الفلسطيني على رماله وبين أسلاكه، الجسر العنيد الذي مرّر الانتفاضة الكبرى، نحو الألفية الثالثة، سالمة وناضجة وحكيمة.
هناك جرت أعمال البنية التحتية، لما يحدث الآن في شوارع فلسطين وساحاتها وتلالها الألف... وفي هذا العدد الخاص من «الشعراء»، حاولنا أن نقدم ما يشبه سيرة للانتفاضة، سيرة تتصل إلى اليوم والغد، لهذا حاولنا أن نجمع المشهد عبر أكثر من زاوية وتنقلنا في الشهادات بين الأرض والهواء والذاكرة، وسيكون، دون شك، لتجربة «أنصار3» موقعها الأساس في المشهد، وهذه مساهمات بعض الذين خاضوا التجربة في المعتقل؛ شهادات، لسياسيين ومناضلين لم يغادروا مواقعهم، وهي اختيارات من كتاب سيصدر قريباً حول «أنصار 3» بعنوان (رمل الأفعى – سيرة كتسيعوت) للزميل الشاعر المتوكل طه، الذي يتناول تجربة المعتقل منذ إنشائه على رمال صحراء النقب الفلسطينية المحتلة.

رئيس التحرير

خندق طائر وبحر يباب

محمد الحوراني*

قبل الانتفاضة الطويلة – اكثر من 2600 يوم بلياليها – عام 1987 كان كل شيء حقيقياً أيضاً، الدم والألم والأمل وأرقام الشهداء، واحصائيات المكاسب والمخاسر، إلا الأرض فلم تكن حقيقية، كانت منذ عام 1965 ارض شتات، تلك الأرض التي لم يتيسر «لفتح» وثورة شعبها المعاصرة إلا الولادة بها، لتخوض بالفلسطينيين فيها ثورتها، وتشعل حروبه الكبرى والصغرى، دشنا بذلك عودة حضوره وميلاده، ووجود لحوح ممتلىء بالحياة، وبجانب تلك الحياة المدوية، مقبرة صامتة في كثير من مدن العالم تضم رفات جنود الثورة المستحيلة التي أعلنت اسمهم بعد كل تلك السنين وهي في بحر دمنا الأسطوري ليتعرف إلينا كل العالم .
بقي كل شيء حقيقياً، حاراً ومؤلماً، ينتقل من خندق طائر إلى بحر يباب، ومن بحر يباب، إلى أرض أخرى، ولكن كان ينقصنا شيء واحد، فقط، أرض غير أرض الشتات، أرض أخرى، هي بين أيدينا، وتحت أرجلنا نتعثر بحجارتها كل يوم، نراها، ولا نراها، ولم ننتبه ما يكفي طوال المدة، أن كل حربنا الآتية يجب أن تحشر في هذه المساحة من الأرض لتقوم قيامة، حتى جاءت الانتفاضة، لتدخلها كلها، لتدخل تلك الأرض الأقرب مما تصورنا في القيامة، المعادلة لأول مرة منذ زمن، فأصبح للتاريخ منذ تلك اللحظة الملهمة قدمان قويتان، يمشي بهما للأمام في دروب الحرية، على أرض واقعية جداً، يكفيها حجر واحدٌ تلقيه، فتشتعل الحرب .

قواعد الحرب الجديدة، استغرقت أساليب جديدة، شبّان وأحياناً شابّات في الشوارع، عشرات الآلاف، ووجوه قلقة على النوافذ بانتظار .

– متى سيعود أولئك من تلك المعركة المجنونة؟ أيعقل أن يذهبوا كلهم «جماعة تكتب التاريخ!» .
– أيعقل أن يذهبوا هكذا؟ بصدورهم! ليواجهوا رب الحديد البارد؟ في هذا الليل البارد؟
لا بد أنه القهر وغرائز اخرى، ذلك الذي فجر تلك الانتفاضة التي علمتْ أصحابها، فعلّموها، والتي دلّتهم على الحياة عن طريق الموت في اختبار عسير، تفوقت عليهم، آلمتهم، طحنتهم، جرحتهم، فتفوقوا عليها بالحياة، وأعادوا خلقها، وحبوها اسمها وسر استمرارها، في جدل عبقري يشبه الصراع الأزلي بين نقيضين لا يمكن إلا أن يكون أحدهما جوهر الآخر – موت وحياة .

قواعد الحرب الجديدة، استلزمت سجوناً جديدة، واسعة عريضة، تضم اولئك المذكورين كلهم، «إنهم جماعة تكتب التاريخ بيد واحدة»، فإذا أردت أن تعدّ مئة من أبطالها، سيأتي بخاطرك ألف آخرون، وإذا جربت أن تعدّ لا تنتهي، كلهم أبطال، ودون أي واحد منهم تنقص الجماعة، وأعظم ما في انتفاضتهم أنها أعطت وساماً لكل جنودها، فلقد كانت بحاجتهم، لأنهم قبلها، أيضاً، كانوا جميعاً بحاجتها .

في سجن الظاهرية «المعبر إلى صحراء النقب» وبعد فوات مدة توقيفهم، كان بعض الاولاد «الاشبال» عندما تُنده على اسمائهم للافراج عنهم في جوف الليل، يتعرضون لتنكيل طريف، لا يُعلم إن كان مبكياً أم مضحكاً، كان يطلبُ منهم الجنود مثلاً أن ينبحوا عواءً، فرداً فرداً، كنّا نحن في غرفة رقم 16 اللعينة، وغرف أخرى، ننظر من النوافذ على هذه الطقوس الغريبة، رفض الأول، سمعنا صراخه الطفولي من الركل من مجموعة الجنود المحيطة بهم، والضرب بأعقاب البنادق من حديد! الثاني أخرج صوتاً نابحاً مُتقطعاً – كأن العالم كله أُهين، كأن السماء حزنت – يا رب السماوات، أترانا الآن؟
عادوا للأول، بنفس الطلب، فهو طلبهم الأثير لهذه الليلة، أخرج صوتاً لا يشبه شيئاً، طلبوا اعادته، فصمت الأول وتجاسر، وتجاسر معه الأولاد، نظروا إلى بعضهم بعضاً – كما تنظر الضحايا إلى بعضها لسبب مجهول أحياناً – تبسموا، تضاحكوا بصوت مسموع، ضحكاً مخلوطاً بخوف، ولكنه كضحك الأطفال، رفضوا جميعاً أن ينبحوا، رفضوا أن يشتموا أحداً من قادتهم، تحوّلوا في برهة إلى شيء آخر، أطفالٌ نعم، لكنهم يتحدون، يرفضون بعناد، لم يفهم الجنود الأغبياء أنه لم يعد يمكن أي شيء معهم، حاولوا مرة أخرى بالضرب بكل قوة – خرج صوت قويٌ واحد من كل نوافذ الغرف المواجهة لهم – الله أكبر، من كل السجن، مزق سكون الليل، سمعه نصف سكان بلدة الظاهرية .
انقض الجنود عليهم، يدفعونهم خارج أسوار السجن من البوابة الرئيسية إلى الشارع الذي أتينا منه، إلى الحرية، لكن في جوف الليل لا سيارات، هناك بيوت قريبة، بالعادة وعلى مدار سنوات استضافت أولئك الذين أفرج عنهم في جوف الليل وصمته .
ترى؟ لا بد أنهم خافوا، واهتزت أجسادهم، ربما من البرد. لقد كدنا نسمع دقات قلوبهم الصغيرة التي ملأت سماء تلك الليلة، بدا أنهم قد لا يعودون إلى هنا، وقد لا ينزلون إلى الشوارع يوماً، لكنني عدت ورأيت اثنين منهم وقد «شرّفا» إلى المعتقل بعد مدّة، فلقد أعاد الجنود امساكهم متلبسين مع الحجر مرة أخرى .

في تلك المرة بدا ان الفلسطيني استطاع أن يرى اعمق منطقة في روحه الخاصة، كما لم يتيسر له من قبل، كانت من المرات النادرة التي استطاع انسان فيها أن يتعرف إلى نفسه لهذا الحد، واندهش هو والباقي بعد ذلك، كأنه لم يكن انه هو، هو بالضبط من فعل كل ذلك، بعد أن حسم نهائياً أنه أحد الجنود، جنود الانتفاضة .

لم يرسم الكاتب نفسه أو غيره، ممن مروا على رمال تلك الصحراء «النقب»، كأبطال من الشمع، منحوتين بدقة وجمال، دون روح وقلب، بل دفعهم للعبور في مشهد ذلك المعتقل النائي، كبشر من لحم ودم، لهم ما للبشر من حنين وشوق يئنُّ كريح شتاء مسعورة في فضاء أرواحهم، كبشر لهم شهواتهم العادية، كالإنسان الأول عندما كان دون لغة، كبشر لهم لحظات ضعف، وحزن وقلق، وأخرى يتجلُّون فيها ويؤمنون انه يمكنهم ثقب السماء بأحد أصابعهم لو أرادوا، أو يلُم الواحد فيهم كل الغيم المحمّل بالمطر بكف يده الواحدة ويعصره، كانوا أحياناً كالأطفال يكثرون الصَخَبْ، والضحك والفرح، وكأن ما هم فيه ما هو إلا سراب اللعب، ولو في زمن الحرب الدامية، كانوا ذلك الخليط المتوازن من التناقضات الذي صنع منهم ذلك الانسان النادر الحدوث، انسان الانتفاضة .

هناك معركة كبرى واحدة من بين كثير من المعارك، يمكن للفلسطينيين أن يؤكدوا انهم انتصروا بها الى غير رجعة، معركة وجودهم بحد ذاته، رغم أن بوابة الخروج من التاريخ فُتحت لهم اكثر من مرة «كما خرج غيرهم» ليخرجوا، في معارك دائماً كانت ظالمة، انطبقت في بعضها السماء على الأرض، لكنهم لم يخرجوا، وبقوا كعلامة إلهية توحي بأصل هذه الأرض. «إنا هنا باقون» كانت نبوءة عبّرت عن الخوف من الاقتلاع وفقد المكانً، وكلمة السر التي بعث الفلسطينيون انفسهم فيها من تحت رمادهم كل مرة، وعصاهم السحرية التي يقولون بها، لكل ما يريدون أن: كن فيكون، كانت اجتيازاً دائماً لآخر الأفق المُتاح عندما يُقيم، إلى افق جديد، بعيد، تسكنه الدهشة والدم، كأنه تحولٌ، وميلادٌ جديد ... وتلك الانتفاضة الطويلة كانت احدى محطات مسار ذلك المخاض الذي نقلنا من رمم التكوُّن إلى ساحة أوسع، أوسع من كل الأرض المتاحة على هذا الكوكب، للخروج من استعصاء الاسطورة على هذا المدى الواسع، إلى أرض حقيقية، هي أرضنا الوطنية .

لم يكن ممكناً لنا، دون المغامرة بدمنا دخول الأسطورة في بداية الطريق، ولو قدمنا التعقلن الزائد، لآثرنا السلامة وربما الغياب، بالحساب العادي، كان يمكن أن نخرج من التاريخ، في عام 48 أو عام 67، قبلهما أو بعدهما، ولكن لا يحسب الموجودون المقهورون في ليلهم بقية الوقت الثقيل، فيشعلون ناراً، يستعجلون فجره بالقوة، فليس لديهم ما يخسرون سوى الليل، ولا يعرض الليل عليهم حينها إلا الدخول في الأسطورة حتى الصباح أشعلوا ناراً، اشتعلوا بها، أشعلوا الليل أيضاً، مزقوه، مزقوا صمته بصوت انكسار عظامهم، بغمغماتهم، وصوت حكمتهم الوليدة للتوّ من حُمّى الهذيان، هكذا تقوم الاسطورة، وهكذا تدوم حتى قدوم الصباح .

– أمّا وقد كنتم رائعين! يعترف لهم الصباح، ورغم ما أُخذ من دمكم، فأنا أعرض عليكم الخروج من الاسطورة، لتجنوا حصاد ما زرعتم بناركم في الليل، لم ينبت الزرع في كل حقلكم بعد، رغم عظمة

ناركم، والحقل كله حقلكم .
قبل أن يأتي الصباح، نذكرُ، وقبل الخروج في فضاء الاسطورة والنار مشتعلة عرف الفلسطينيون أكثر، وتعلموا عمّن واجههم وأدماهم، عمّن تحدوه وقاتلوه وأدموه أيضاً، أنه خرافة، لقد رأوا عن قرب، له جسم كبير، لم يأت من التاريخ الذي يعرفه الفلسطينيون جيداً، فلقد عبروه كلّ الوقت، من أين أتى، ذلك كان سؤالهم رغم أنه أتى، لا بد أنه يلزم الدخول في الاسطورة مرة أخرى، ولو في عز الظهيرة اللافحة، فالحقل كله حقل، ولكن، ماذا بخصوص ما يمكن أن نأخذه هذا الصباح غير اسطورتنا العظيمة؟ تعلم الفلسطينيون في الانتفاضة أن للحرب ثمنها، تعطيك وتأخذ منك، أعطتهم أقل مما يريدون، ولكنها نقلتهم من الاسطورة التي بدونها ما كان لهم أن يشهدوا ذلك الصباح، إلى الواقع، فالشهداء لا يدخنون في الفضاء ولكن في التراب، وحساب التراب المقدس لا يمكن أن تقطع مسافته محلقاً، بل خطوة دامية بعد أخرى على الأرض، لذا صارت لغتهم الجديدة ترابية يتدخل فيها حساب منازل الهلال، والخصب والجدب، وكذا الأوقات والمسافات، لأنه لا يمكن بعد اليوم العودة لدخول تلك الاسطورة اللذيذة القاتلة، المحببة والمميتة، إلا بعد قطع المسافة التي علينا أن نعبرها، على هذه الأرض .وبعد أن نأخذ وقتاً من زماننا، وهلالاً من بدرنا القديم المكتمل.
أخيراً ما الذي استحضر تلك الانتفاضة الطويلة من ذاكرة الأخ الشاعر المتوكل طه، لا بد أنها الانتفاضة الثانية، التي حضرت في أيلول نزقة مجنونة، الانتفاضة العاملة، اللائقة الحديث، الخرساء، التي تبعث على الرضا والقلق، ولكنها أعني الثانية، كأنما تضعنا اليوم على أسوار القدس لنرى حديتنا السماوية المسحورة، لنمسكها بأيدينا أو لترمينا من جديد على أول شوط من نفس الطريق، الذي مشيناه أكثر من مرة على عظام ركب أرجلنا الدامية مسرعين .

---

* عضو المجلس التشريعي الفلسطيني.

سيرة القيد والقلم

نبهان خريشة*

1- الاعتقال

الكشافات المثبتة على الجيبات العسكرية تخترق بأضوائها الحادة احشاء الظلام كمبضع الجراح في جسد المريض .. تغتصب فرحة الحزن من ليالي تشرين المرتدية حلّة حالكة من السواد حداداً على الصيف المحتضر .. لا تسمع في الحارات المقفرة سوى لهيب أسواط عجلات الحبيبات على جسد الأسفلت العاري، وبث اللاسلكي المبحوح المختلط بصوت الأذان لصلاة العشاء .

في تلك الليلة الخريفية سماعات «تاديران» تردد أمر الحاكم العسكري بعربية فصحى لمنع التجول .. رصاص .. هدير محركات العربات العسكرية: عزيزة و«السحلية» و«الصرصور» كما درج على تسميتها في عصر الانتفاضة .. تبدأ الرماية بالأضواء وبجميع أنواع الكاشفات .. الأضواء الباحثة عن اللاشيء .. العمياء المحملقة في جسد الليل الممدد.

إنني أكره الليل بالغريزة .. بل وابعد من ذلك أتمنى أن لا تكون فلسطين في الشرق الأوسط بل على ضفاف خط الاستواء حيث يطول النهار ويقصر الليل .

الليل في عصر الانتفاضة يعني المداهمة .. مخابرات تقود مفارز جنود .. يحاصرون ويعتقلون .. يحظرون التجول ويلمون الناس في ساحات المساجد والكنائس والمدارس وبين بطون وأفخاذ الحارات .. ترى من سيعتقلون الليلة؟!

الجار: حظر التجول لا يشملنا في «الشرفة» مفروض على «النتاريش» على ما يبدو هناك حفلة شواء بالقنابل الحارقة لأحد باصات مستعمرة «بساغوت» على جبل الطويل .

قلت في نفسي لن أخرج لـ «اللمة» خوفاً من أن يلفت اسمي انتباههم ... عندما سأقف وجهاً لوجه في

قفص الاتهام أمام الكمبيوتر سيواجهني بـ«سجين سابق» لأكثر من مرّة ومقيم جبرياً لخمس سنوات .. وصحيح مع وقف التنفيذ .

لعنة الله على الكمبيوتر، لقد صمم لخدمة البشرية باستثناء الفلسطينيين، فهو يعني للفلسطيني: «بلاك ليست» .

قبل أن يتمكن عقرب الساعة من أن يكمل من الدورات دورة كاملة، هوى زجاج «فرندة» أبو جواد، الجار الأمريكي متناثراً بهراواتهم كتناثر زجاج حافلاتهم بحجارتنا، .. لم يُجد أبا جواد جواز سفره الأمريكي نفعاً، ولم تنفعه إنجليزيته أيضاً، فلدى إبرازه جواز سفر العم سام فيَ محاولة لكبح بطشهم داسته بغالهم التي صنعت في بلاد العم سام .

الطرقات المحمومة على باب بيتي الموصد ذهبت بكل تحليلاتي وتساؤلاتي انا المطلوب .. لم ينتظر أبطال «جفعاتي» أن أفتح الباب الموصد لهم، لقد دخلوا البيت من شبابيكه .. تهيأ لي عندها أن ورشة للحدادة والنجارة تجري في بيتي أكثر ما يزعجني في العملية الاعتقالية ليس مصيري، وانما سادية جنود «جفعاتي» و«جولاني» في تلذذهم لرؤية الضحية .. أطفالي الذين يكسوهم الزغب ويرقدون في اعشاشهم الدافئة احترت أي الأبواب افتح؟ قلت: الأقرب .. شاهدتهم يرتدون بزات الميدان ويعتمرون الخوذ .. لم يروعني المنظر .

جندي قفز من نافذة الشرفة وأخذ وضعاً قتالياً اندفع نحوي مسدداً لكمات لوجهي أخطأ الهدف قال بالعبرية: افتح الباب الرئيسي!

أجبته بعبرية صافية فاجأته قليلاً: سأفتح .. لا تدخل لئلا تروع الأطفال .

في هذه الأثناء انقطع التيار الكهربائي عن كل المدينة، .. قلت في نفسي، شكراً لشركة كهرباء محافظة القدس، لأن ذلك يضمن لي إقامة قصيرة لهم بيبتي .

زوجتي: إلى أين تأخذونه؟

وبحركة مسرحية بفرقعة الإبهام بالوسطى أجابها ضابط المخابرات بالهيليوكبتر .

فهمت زوجتي أنه يقصد الابعاد .. تدحرجت دمعتان عزيزتان على نفسي على وجنتيها .

كانت سياراتهم تقف بعيدة عن البيت بشارعين أو ثلاثة هذه هي عادة الكواسر في البحث عن الطرائد .

2– الخيمة

الساعة تجاوزت الواحدة صباحاً .. وصلنا إلى بناية الحكم العسكري .. الضباب الكثيف يحتضن مدينتنا محاولاً تغطية جسدها العاري من كشافاتهم المبحلقة في جمال ظلماتها.

ضابط المخابرات: ستذهب للخيمة ونلتقي غداً!

الخيمة محطة عبور إلى معتقل الظاهرية ومن ثم إلى «انصار 3».. النقب.. صادروا كل ما في جيوبي .. وللحقيقة كانت فارغة من المال حيث تركت البضعة دنانير الاخيرة في محفظتي لزوجتي لتتصرف بها .. صادروا رباط حذائي ..

ومع الاشعاعات الأولى لشمس الصباح ..! استيقظ الاخوة وانهالت اسئلتهم: متى احضروك؟ من وين

الأخ؟ شو بتشتغل؟ ..
كنت متحفظاً، ولكن تحفظي لم يطل، لقد كسر الشبان الصغار، جنرالات الانتفاضة، تحفظي .. لقد أجبروني على توطيد العلاقة بهم .. لقد احببتهم من اعماق نفسي .. دخلنا في حديث لا منته .. ضحكوا رغم جراحهم ورغم الحفر والكدمات التي تركتها هراوات «جفعاتي» و«جولاني» على أجسادهِم اليانعة.
في الخيمة المقابلة ثماني عيون ترصدنا .. وفي خيمتنا، وطننا المؤقت نحو مستقبلنا الغامض ست وأربعون عيناً في رؤوس اجسامنا الناحلة التعبة من الضرب المبرح والقلق المستمر .
إنهم أربعة جنود كلفوا بمهمة حراستنا ومراقبتنا تلمس فيهم تناقض مجتمع الآخر: الأول يعتمر القبعة اليهودية الصغيرة على مؤخرة الرأس يؤدي الصلاة بحركات انحنائية إلى الأمام والى الخلف، ويقرأ مقاطع من التوراة .
الثاني يقطر وجهه حقداً وكراهية .. يروقه ما يرى، على ما يبدو فإنه ينتمي لحركة موليدت العنصرية التي أتاحت لها «الديمقراطية» الإسرائيلية احتلال مقعدين في الكنيست في انتخابات عام 1988 .
الثالث تدل نظراته البلهاء على أنه صهيوني علماني غير مبال بما يدور حوله ... كل ما يهمه على ما يبدو أن ينهي فترة خدمته في الاحتياط، ثم يعود لبيته وكأن شَيئاً لم يكن.
الرابع، توحي تصرفاته أنه متضامن مع «جوليات» المقيد في الخيمة المواجهة تضامناً خجلاً لئلا يتهمه الملك داوود بالخروج على اجماع الشعب اليهودي او الانشقاق عنه.
لا حديث معهم سوى الاستئذان باستعمال دورة المياه، وفي النهار فقط .. وما أن تهوي الشمس في الغرب البعيد حتى نقوم بضبط إرادي لمسالكنا البولية .
الجندي «المعارض بخجل»، يتمكن أحياناً من التسلل نحونا إذا اتيحت له فرصة البقاء وحده في الخيمة المقابلة .. يأخذ النقود منا ويشتري لنا السجائر من كانتين الحكم العسكري، وغالباً ما تكون هذه الفرصة نادرة .
ووفاء منا لهذا «العميل» وحفاظاً منا على هذه النعمة نضطر للتدخين بالسر، وأحياناً عدم التدخين عندما تكتمل أطياف قوس قزح المجتمع المستوطن في الخيمة المقابلة .

3– الظاهرية
المفرج عنه من هذا المعسكر الاعتقالي يضرب أكثر من الوافد إليه .. غالباً ما يجبر الوافدون والمغادرون على السير على أربع .. إنه مسلخ أقيم لقمع الانتفاضة في شباط 1988 .
أعتب على السلطة الفلسطينية عدم بنائها نصباً تذكارياً في موقع هذا المعتقل، بشعلة لن تطفئ إلى الأبد على غرار صرح شعلة «الكارثة والبطولة» الإسرائيلي في «ياد فاشايم» تماماً .
الظاهرية .. كومة من الأسلاك الشائكة على كتل إسمنتية .. نوافذ صغيرة على اسطبلات مغطاة بصفائح معدنية مثقوبة .. تنبعث من ابنيتها السردينية روائح نتنة .. على الأسطح جنود مزودون بأسلحة آلية وبنادق قنص .. في أروقته وساحاته شرطة عسكرية مزودة بهراوات يلوحون بها كما الدراويش بسبحاتهم.

–وجوهكم للحائط!
غريب لماذا لم يضربوا! قلت في نفسي .. لماذا يصرخون فقط! أنا لست «ماسوشياً» .. على ما يبدو! اختلفت السياسات .. لقد خسر إسحق رابين الرهان «يعتمد من يلوي ذراع الآخر» علمت لاحقاً أن السبب في تغير السياسات ولو آنياً على الأقل هو سقوط الشهيد عطا عيّاد من مخيم قلنديا على أيدي الشرطة العسكرية في زنازين الظاهرية .
دخلت إلى علبة السردين .. الجميع منهمك في «التيمم» على الجدران استعداداً لصلاة العشاء .. لا ماء للوضوء وأصلاً لا ماء للشرب .. الماء مقنن كما الطعام والاكسجين .. يلطمون الجدران براحات أيديهم، إنها انعكاس لحالة من التوتر الداخلي .
بدخولي إلى علبة السردين رقم «9» بلغ عدد سكانها خمسة وثلاثين .. مساحتها عشرون متراً مربعاً حسب مقياس «فحجة» جدي رحمه الله .. إحدى زواياها مغطاة ببطانية .. أثارت هذه البطانية فضولي، فكشفت فإذا به دلو مركون في الزاوية يؤدي وظيفة دورة المياه .. وفي الزاوية الأخرى «خازوق» تتدلى خلفه من أعلى رقبته كان يستعمل سكة لربط الخيل على أيام الفرسان الأردنيين .. وبجانب هذا الخازوق كومة كبيرة من الاحذية ذات الأفواه الفاعرة لعدم وجود رباطات عليها .
بمجرد دخولك إلى الظاهرية يُلغى اسمك وتصبح رقماً .. يدخل ضابط الشرطة العسكرية وبرفقته عددٌ من الجنود ليجري عملية عد السجناء .. يقرأ الأرقام ويجيب كل معتقل: «كين كابتن»، أي نعم يا كابتن إنها «القيامة الآن» ولكني لست مارلون براندو، وما من منتج إسرائيلي يجرؤ على انتاج فيلم قيامة الآن اسرائيلي .. نحن مجبران على استنشاق الاكسجين بالضرر الذي تسمح به ثقوب الصفيح المثبت على النوافذ مخلوطاً برائحة سجائر «إسكوت» الكريهة تضاف اليها الروائح المنبعثة من الدلو المركون في زاوية الغرفة .
في اليوم الثامن عشر من «القيامة الآن» في الظاهرية، وبعد أن أنهى الضابط طقوس العدد تقدمت منه قائلاً ..!
– لقد انهيت فترة اعتقالي القانونية، أريد أن أعرف مصيري .
ذهب وعاد بعد نصف ساعة .
– سيتم الإفراج عنك، وصمت ثم تابع ولكن بعد ستة أشهر .
– أنت معتقل إدارياً وسيجري نقلك إلى «كتسيعوت» النقب .. أنصار ثلاث .
بحلول مساء اول تشرين ثاني 1988، قرأ أحد افراد الشرطة العسكرية رقم «5691» جهز نفسك للنقل إلى «كتسيعوت» . اصطف الاخوة إلى الحائط ولكن ظهورهم إليه هذه المرة .. ودعتهم، وما ان انتهيت فتح باب علبة السردين، وخرجت دون النظر إلى الوراء .
طوال فترة اعتقالي في الظاهرية لم أحاول الخوض بمتاهات الأيديولوجيا مع جنرالات الانتفاضة .. هم الذين يمسكون بناصية الموقف وليس المثقفون .. إنهم لا يفهمون سوى لغة الحجر .
لقد أحدثوا بحجرهم الذي ألقوه في مياه الشرق الأوسط الآسنة الراكدة دوائر صغيرة ما لبثت أن اتسعت وأحدثت تغيرات استراتيجية في ميزان القوى في المنطقة .. ولقناعتي المطلقة بالنضال الوطني

الفلسطيني وشرعيته فهمت أن الانتفاضة الأولى 1987–1993 هي تتويج للمراحل النضالية السابقة، ربما منذ بدايات الصراع مع الصهيونية في مطلع القرن العشرين .

4– «أنصار 3»

بدأت الشرطة العسكرية بجمع المعتقلين الذين سيلقى بهم في أتون «أنصار 3» .. ولم تكد تمضي ساعة حتى كنا ما يقارب الأربعين شاباً نقف في الساحة الرئيسية، منشورين كالغسيل على جدران وأسلاك الظاهرية .

ها هو زميلي وصديقي المتوكل طه يبرز بين الجميع لطول قامته .. ضحكنا وتحادثنا بصوت مرتفع دون الاهتمام بعواقب الضحك والحديث من الشرطة العسكرية، ويعلم أنه لم يعد لدينا ما نخسره، سألت المتوكل: هل تعتقد أن أبو عمار سيفاوض هؤلاء؟

ضحك دون أن يعلق .. فهمت أن ضحكته تعني «حكي السرايا مش مثل حكي القرايا» .

بعد اكتمال العدد ادخلونا للمخزن المكتظ بأكوام البطانيات والأدوات الأخرى .

الجندي: ستنامون الليلة هنا .. وعند الصباح ستكونون بـ«كتسيعوت»، الفلسطيني المعتقل يتقن مهنة المساحة .. قمنا بفرش الأرض بالبطانيات المتوفرة بطريقة يتمكن فيها الشخص من النوم على جنب واحد.

المتوكل على يميني .. وعلى يساري أبو شاكر ابن السادسة والستين ربيعاً .. شيوعي سابق أفنى روحاً من عمره في معتقل الجفر الصحراوي في بادية الشام .. حسدته على تجربته تلك كونه سيتأقلم بسهولة مع معتقل «انصار 3» المشابه .

كلما يتسلل النوم لعيوني المتعبة تصفعني قطرة ماء من تلك المتكثفة على سقف المخزن الصفيحي .. لا يمكن تجنب القطرات، فالمساحة المخصصة ضيقة .. أمضيت الليل بالحديث إلى المتوكل وأبو شاكر اللذين لم يناما للسبب نفسه .. أبو شاكر متشوق للذهاب إلى «أنصار 3»!!! .. دهشت: هل يعقل أن تتشوق الضحية للسير إلى مسلخها؟! .. سرعان ما زالت دهشتي عندما عرفت أن لديه ولدين معتقلين في أنصار .

المتوكل، رفيق القيد يداً بيد .. رفيق القلم .. رفيق المقعد الدراسي في جامعة بيرزيت له خبرة طويلة في «أنصار 3» فلم يكن قد مضى عن الإفراج عنه منه سوى ثمانية وخمسين يوماً بعد أن أمضى بين أسلاكه الشائكة ولهيب رماله الحارة وبرودة لياليه القارسة نصف عام .

المتوكل – أتمنى أن لا يودعوننا قسم واحد بل قسم اثنين .

سألته – أين يوجد الشباب الذين نقلوهم من سجن جنيد في نابلس؟

قال – قسم اثنين .

شاركته التمني رغم قناعتي في قرارة نفسي أن ليس مهماً أين سأقضي فترة الاعتقال .

استغرقت الرحلة بين الظاهرية وانصار ساعة ونصف الساعة .. لماذا كنت أظن أن أنصار يقع على حافة العالم... لم أشاهد من قبل المناخات والاجواء البيئية المختلفة التي تتمتع بها فلسطين الساحل .. الأغوار

.. الجبال وها هي الصحراء .. صحراء السبع عارية أمامنا تبرز كل معالم أنوثتها .. تحاول الاستمالة والأغواء .. تقول: لست قاسية .. لقد أرادوني كذلك لكم .

ها هو «أنصار 3» أمامنا .. يافطة بالعبرية ترحب بالقادمين لمنطقة «جفعاتي» .. توغلنا في أعماق المنطقة حتى وقفت الحافلة أمام مكاتب إدارة المعتقل العسكرية .

خيام هرمية الشكل بيضاء مائلة للصفرة، تحاول رفع أعناقها لترحب بالقادمين الجدد .. تحاول النهوض خلف اطنان الاسلاك الشائكة المغطاة بقطع من الخيش، ولكن دون جدوى ..

«كتسيعوت» هو الاسم العبري لـ«أنصار 3»، وهي تعني كما ورد في قاموس قوجمات (عبري – عربي) بعد ردها إلى الجذر «كتسيعاه»: قطعة الأرض المنسلخة، أو الانحراف الأرضي بمعنى الحفرة أو قطعة التين الجافة .. وعلى ضوء معاينة منطقة المعتقل على الطبيعة فإنني أرجح، معنى الانجراف الأرض أو الجورة.

«أنصار 3» ثلاثة معتقلات: (1) و(2) أو كيلي7 وكيلي تعني بالعربية: معتقل .. لكل قسم إدارته الخاصة به برئاسة ايتسك والبرت وعمرام على التوالي .. يأتمرون بأمر العقيد دافيد تسيمح ضابط المدفعية المصاب برجله اليسرى انه بشحمه ولحمه قائد معسكر «أنصار 1» في جنوب لبنان إبان الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 وهو صاحب فكرة «حفرة النقب» .

«أنصار 3» هو التطبيق العملي لرواية شكسبير «تاجر البندقية» لقد دفعنا الثمن آلاف الأرطال من اللحم البشري دون نقطة دم واحدة (ليس بالمعنى الحرفي) .. لقد فقد كل من دخل أنصار ما يقارب العشرة كيلو غرامات من وزنه بالمتوسط .

في مجتمع «أنصار 3» الإسبارطي لدينا شرائعنا وقوانيننا الخاصة تصل لحد التقديس: الجميع منضبط.

– الاتصال بالادارة أو الجيش يتم عبر قناة واحدة وحيدة هي «الشاويش» .. شاويش القسم...

– طريقة الاتصال عبر الأقسام تكون بواسطة «الصحون الطائرة» وهي رسائل مغلفة بأكياس بلاستيكية مثقلة بالحجارة يجري تقاذفها بين الأقسام .

–لجنة الساحة هي المخولة بإحضار الطعام وتوزيعه بالتساوي وتحل المشاكل في حال بروزها .

–لجنة الصندوق توزع السجائر والصابون وورق التواليت .

– اللجنة الثقافية توزع الصحف وتشرف على توزيع الكتب القليلة الموجودة وتنظيم الندوات والمحاضرات.

مجتمع «أنصار 3» هو انصهار الجميع تحت استراتيجية واحدة .. شعار واحد «الانتفاضة» .. لا مجال أبداً لأن تصل أية خلافات مهما عظمت نقطة اللاوحدة .

رمال النقب حارة وشمسها حارقة ولياليها قارسة البرودة لا تفرق بين اعضاء الأطر الفلسطينية المختلفة.. هراوات الشرطة العسكرية وزنازينها الفاغرة الأفواه لا تميز بين التشكيلات الاجتماعية التي ينحدر المعتقلون منها .. النقب جهنم .. فهل من مزيد؟

* مدير مركز الإعلام في جامعة بيرزيت.

الحُفْرة، رائحة القُرفة ..

لؤي عبده*

لقد انفجرت انتفاضة الأقصى في عام 2000، لتمنع استمرار اتساع الهوّة ما بين الماضي والحاضر، وهو الأمر الذي سيجعلنا نختلف حول أهمية هذه الانتفاضة وأبعادها، ومدى تشابه وجهها الثوري مع انتفاضة شعبنا المجيدة في عام 1987، هناك كانت انتفاضة، وهنا الآن يوجد انتفاضة مجيدة، ومباركة... ولكن ؟!..

الدروس والعبر واحتراف العمل من معالم الحقيقة الفردية والجماعية في أوساط العمل الفلسطيني، بل وهي دليل كبير لكل عمل قد يخوضه المرء من أجل تحقيق أهداف كبرى. وهذا ما تعلمناه في انتفاضة عام 1987، حين انفجرت في وجه المحتلين الإسرائيليين، الذين رفضوا الاستسلام لإصرار الإرادة الفلسطينية الشعبية داخل الوطن المحتل، وراحوا في الاتجاه الذي قد يخرجهم من تلك الأزمة.. وفعلاً خرجوا بعد سبع سنوات من انتفاضة تفاعلت طويلاً... وكان ما كان...

إن العودة إلى الوراء عبر طريق الذاكرة، والتجوال فيها، والوقوف عند تلك المعركة الصعبة والعنيفة، والتي كانت إحدى محاور حرب الانتفاضة عام 1987 لهما أمران غاية في الأهمية... فالموضوع يتناول حياة سبعة آلاف روح فلسطينية كانت محاصرة بالسياج والظروف الصحية والنفسية القاسية، وبأجواء الصحراء والعنف والضرب والتعذيب والعزل... إلخ من ممارسات الفاشية المعاصرة... هذا في معتقل «أنصار 3» في صحراء النقب جنوب فلسطين...

عام 1982، وحين قررت زمرة من رجال الحكم في إسرائيل وهم: مناحيم بيغن، وأريئيل شارون ويوسف بورغ، وسمحا أرليخ .. وغيرهم الذهاب إلى لبنان لقمع وإزالة المقاومة والأبعاد والنتائج.. كانت أولى

هذه النتائج الحربية العدوانية الإسرائيلية، أن قرر أريئيل شارون الذي كان يشغل وزير الحرب الإسرائيلي آنذاك.. إنشاء معسكر للاعتقال في منطقة داخل أراض جنوب لبنان، تدعى أنصار .. فأقام عليها معسكر حمل اسم المنطقة ورقم واحد. ليعتقل فيه أكثر من خمسة آلاف مناضل ومواطن ومقاتل لبناني وفلسطيني، وليصبح فيما بعد معسكر الاعتقال أنصار أحد رموز الصراع العربي – الإسرائيلي، في جنوب لبنان وغزة حيث «أنصار 2»، والنقب جنوب فلسطين حيث «أنصار 3».

ولهذه المعسكرات خلفيات وأحداث ووقائع مهمة في تاريخ البشرية، وخاصة في تاريخ الحروب، فمعسكرات الاعتقال التي حملت خصائص العذاب والمعاناة والألم والعقاب الجماعي والتجويع والعزل الاجتماعي، والعنف المنهجي المعمول به كاستراتيجية لإذلال الآخر، أي المدعو فلسطيني ...

إسرائيل دولة سجون ومعتقلات ومعسكرات اعتقال، هذه أسماء ثلاثة تعبر عن مراحل ثلاث في تطوير نهج القمع الاحتلالي الإسرائيلي لكل مواطن فلسطيني يعيش في هذه البلاد.

فالسجون في إسرائيل منها ما ورثته الدولة العبرية بعد الإعلان عن وجودها على أرض فلسطين، من العثماني الذي حكم هذه البلاد، والبريطاني المنتدب الذي حكمها عسكرياً وقمعياً وسجون خلفها الحكم الأردني في الضفة والحكم المصري في غزة. ناهيك عن السجون التي شيدتها إدارة مركزية خاصة لإدارة السجون في إسرائيل، وأقامت على سبيل المثال، سجن بئر السبع، يقع جنوب البلاد على أرض صحراء النقب شيد عام 1970– وكذلك سجن نفحا الصحراوي، أيضاً، أقيم على أرض النقب جنوباً عام 1980، وهناك سجن الجنيد في الضفة الغربية غرب نابلس أقيم عام 1984.. طبعاً هناك سجون أخرى أقيمت في السنوات الماضية لكن ذكرنا أبرزها من شبكة سجون تجاوزت الثلاثة والعشرين سجناً في دولة لا يتجاوز عدد سكانها اليهود ثلاثة ملايين نسمة من اليهود، لكن هذه الشبكة الاعتقالية أقيمت لكي يتم قمع العرب في جميع أنحاء البلاد، وخاصة في حالة نشوب مقاومة مسلحة تدعو لإقامة دولة فلسطين وإنهاء الإحتلال الإسرائيلي، وهذا ما كان قد حسب حسابه عام 1966 – 1967 كل من ليفي أشكول رئيس وزراء حكومة إسرائيل آنذاك، وموشيه ديان وزير حربها الذي أعطى اهتماماً كبيراً لظاهرة الكفاح المسلح التي أخذت تشق طريقها عن طريق العمل الفدائي لضرب أهداف إسرائيلية متعددة منذ عام 1965 وما قبل ذلك.

فالسجون في إسرائيل كانت وما زالت جزءاً مهماً من بناء استراتيجية القمع والمواجهة للشعب الفلسطيني الثائر داخل الوطن المحتل وخارجه والمتواجد في دول الطوق العربية من حدود فلسطين وقد أعدت هذه السجون بشروط حياة ونظم قمعية بشعة تستهدف حياة الإنسان معنوياً ومادياً، لقتل بذرة المقاومة في داخله ووجدانه بمجرد أن يوضع فيها لمدد زمنية متنوعة، عبر نظام عسكري إجرائي (المحاكم العسكرية) التي كانت تصدر أحكامها بحق الشباب الفلسطيني بأحكام منها المؤبد والعشرون عاماً والاعتقال الإداري القابل للتجديد ومدته ستة شهور وهو من التدابير الاحترازية التي اتبعتها السياسة الإسرائيلية سنوات وجودها فكان هذا جزءاً من مشروع دولة يهودية أقيمت على أرض فلسطين، دولة معدة بالسلاسل والسجون ومحاكم التفتيش للمواطنين الفلسطينيين ولأي جزء من الأراضي العربية التي تحتله وتكون مأهولة بالسكان العرب. كهضبة الجولان السورية وجنوب لبنان والضفة

الغربية وقطاع غزة والقدس العربية.
وخلال الثلاثين عاماً الماضية، استباحت الدولة اليهودية ومؤسساتها القمعية، حياة الفلسطيني المقاوم للاحتلال، ودخل هذا الصراع بكل أشكاله تفاعلات حادة وشرسة، وكلما زادت المقاومة الفلسطينية كفاحها وأصول عملها ضد المحتلين، زاد معه العنف المنظم لدولة إسرائيل للمجتمع الفلسطيني المحاصر بالقوة العسكرية لإسرائيل وسجونها وعنفها وأساليبها الممتدة أكثر من خمسين عاماً في فلسطين.. إلى أن وقعت الواقعة الكبرى لدولة الاحتلال.
وانطلقت انتفاضة جماهير شعبنا عام 1987 وهي الحرب المركزة والثورة الكثيفة التي تفجرت في أحشاء دولة الاحتلال. ومع إصرار هذه الإرادة الشعبية الداعية إلى زوال الإحتلال، راحت حكومة ما تسمى بالوحدة الوطنية لإسرائيل تستشرس في ابتكار الأساليب الوحشية لقمع الثورة المكثفة (انتفاضة عام 1987).
وكان من أبرز ما جاء في ابتكاره وزير القمع الإسرائيلي اسحق رابين آنذاك وبتخطيط وتنفيذ «إيهود باراك» الذي كان يشغل في تلك الفترة رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية ومن ثم رئيساً لهيئة أركان جيش الاحتلال الإسرائيلي. والذي أركن له وضع خطة لقمع الانتفاضة (المصطلح الذي أصبح عالمياً في اللغات)، فما كان من «إيهود باراك» إلا أن يعلن عن الشكل الإداري والهندسي لسياسة القمع، معلناً بذلك أن المؤسسة العسكرية، ستلجأ إلى ثلاثة أشكال من دوائر الإجراءات لمواجهة الانتفاضة وهي:

1. إجراءات إدارية (حربية) .
2. الاعتقال الإداري والإبعاد (الطرد خارج البلاد لنشيطي الانتفاضة) .
3. العقاب الجماعي .

بهذه الكلمات المختصرة والمبهمة أعلنت دولة إسرائيل عن سياستها للتعامل مع المقاومة الشعبية الفلسطينية (البيضاء).
وفعلاً فتحت المعتقلات أبوابها ومن ثم شيّدت معسكرات الاعتقال لتتسع لآلاف المواطنين المقاومين وكذلك سياسة إطلاق النار على الأبرياء المدنيين في المظاهرات، وكذلك إبعاد الكثير من الشباب الفلسطيني إلى جنوب لبنان، وتكسير عظام أكثر من خمسة عشر ألف مواطن فلسطيني... وإجراءات حظر التجول، وهدم المنازل، ومصادرة الأراضي، ومنع المواطنين من السفر أو التنقل وغيره من عشرات الإجراءات القمعية والفاشية تم اللجوء إليها لإخماد نار الانتفاضة التي دعت آنذاك إلى دحر الاحتلال وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس وعودة اللاجئين، والالتفاف حول منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، هذا ما كانت تنادي به جماهير الشعب المقاوم.
ومع استشراس وتوسيع الاحتلال الإسرائيلي لاحتواء الانتفاضة الشعبية العارمة في جميع أنحاء الوطن المحتل، ازدحمت السجون، ولم تعد للمحاكم العسكرية (محاكم التفتيش) القدرة على استيعاب الأعداد الكبيرة من حملات الاعتقال الواسعة التي شنها جيش الاحتلال فما كان من قيادات قوات الاحتلال

بزعامة اسحق رابين، إلا أن تقيم معسكرات الاعتقال لجيش آلاف الشباب والفتيان والشيوخ من أبناء شعبنا المنتفض. فأخرجت سلطات الاحتلال شبكة جديدة من المعتقلات فيها معسكر اعتقال عتليت ومجدو.. وبيتونيا.. والفارعة.. و«أنصار 2» في غزة، و«أنصار 3» في صحراء النقب جنوب فلسطين. وتكون العقلية الصهيونية ووسيلتها إسرائيل قد أكملت تاريخها القمعي في مجال المعتقلات والسجون ومعسكرات الاعتقال، المستمدة فكرتها وأشكالها من معسكرات الاعتقال النازية في أوروبا إبّان الحرب العالمية الثانية سواء من حيث الإجراءات لاعتقال المدنيين المقاومين للاحتلال، أو من حيث توزيعها وخصائصها ومكانها وإدارتها التعسفية.

وهذا ما رفضت العيش والسكن فيه الفتاة اليهودية (ماليا) ابنة السبعة عشر عاماً، عندما حاولت الهروب من معسكر «أوشفيتس» النازي في ألمانيا إبان الحرب العالمية الثانية، حيث حاولت الهروب من على شباك المعسكر، فقام أحد جنود الألمان بإطلاق النار على جسدها، فأصابها إصابة مميتة، ومن شدة قهرها ورفضها لهذا الاعتقال المؤلم، تدلّى جسدها بعد أن قتلت على الشباك وأصابع يديها تمسك بالشباك وبقيت (معلقة) ثلاثة أيام على مرأى المعتقلين اليهود في هذا المعسكر لتكون عبرة ورادعاً، لمن يحاول أن يحذو حذوها..!!

هذه القصة اليهودية التي انتشرت في أوساط اليهود، وكادت تصبح أسطورة، ومثالاً لحياة اليهود المعذبين في أوروبا وعلى يد الجيش النازي. بنفس هذه الكلمات كتب المعتقلون رسالتهم لإسحاق رابين يوم 5/7/1988 عندما قام بزيارة إلى معسكر «أنصار 3»، وكان يرافقه في تلك الزيارة التفقدية كل من «إيهود باراك» رئيس هيئة أركان جيش الاحتلال، وإسحاق مردخاي الذي كان يشغل منصب قائد المنطقة الجنوبية آنذاك، والذي تسلم منصب وزير حكومة باراك عام 1999، وانسحب بعد ذلك من الحياة السياسية على إثر فضائحه الجنسية القذرة، هذه الزمرة التي سببت جرح روح الشعب الفلسطيني المناضل عام 1987 ومارست كل أشكال التعسف والقمع والإذلال لكسر إرادة المقاومة الفلسطينية.

وكان معسكر الاعتقال «أنصار 3» أحد أهم وسائل محاولات الكسر والإذلال هذه التي أعلن عن حيز وجوده (تقريباً يوم 17/3/1987) في صحراء النقب جنوب البلاد في منطقة تدعى بالعبرية (كيتسيعوت). ومعناها إلى اللغة العربية – رائحة القرفة – أو نبتة القرفة لما عرف أن هذه المنطقة تنبت في تربتها هذه النبتة المعروفة.

وكان العرب يسمونها قبل أن تصبح تحت الاحتلال الإسرائيلي عام 1947، منطقة (الجورة – تعني الحفرة) لطبيعتها الجغرافية ... حيث تشكل منخفضاً ترابياً تحيط به تلال ترابية تعطي شكلاً دائرياً وكأن لشكل المنطقة (حفرة التراب). والمعروف عن هذه المنطقة، أنها عبارة عن تجمعات عسكرية لقوات الاحتلال الإسرائيلي، وتكثر فيها المعسكرات والعمال والتدريبات والأنشطة العسكرية. علماً أن قوات الإستعمار البريطاني منذ انتدابه على فلسطين، كان لقواته انتشار في هذه المنطقة، وكان يطلق عليها اسم (الجورة)، أو سجن رقم «7»، التابع لقوات الاستعمار البريطاني إبان الحرب العالمية الثانية، حيث أقيم هناك سجن على تلة مزروعة بأشجار صحراوية وغيره.

ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم ما زالت سلطات الاحتلال الإسرائيلي تستخدم هذا المبنى معتقلاً اعتقلت فيه الشباب والمواطنين الفلسطينيين في انتفاضة عام 1987. وهذا، أيضاً، ما فعلته قوات الاستعمار البريطاني، عندما أقدمت على عزل عشرات من الشخصيات الوطنية وناشطي الكفاح ضد الإنجليز في فلسطين، وقد نقلت إلى هذه المنطقة العديد منهم، واعتقلتهم في سجن رقم سبعة.
لكن هذا المعسكر كان معداً في عام 1988 لاستيعاب عشرات آلاف المعتقلين، حسب توجهات آلة القمع الإسرائيلية، فقد احتجز وراء سياجه اكثر من سبعة آلاف مواطن فلسطيني أخضعوا لنظم قمعية ومذلة وهادفة الى تحطيم نفسيته وكسر روحه الوطنية والانتفاضية، لقد أقيم هذا المعسكر الاعتقالي بشروط حياة صعبة وخارجة عن طاقة البشر من حيث التحمل والأبعاد اللاأخلاقية بمجرد إخضاع الإنسان للعيش فيها لما ستسببه من أذى كبير وجرح عميق، لكنه الاضطهاد اليهودي للعربي الفلسطيني في فلسطين، والذي نعتقد أنه ستستمر آثاره عشرات السنين مهما كانت محاولات السلام المستحيل التي خدمت فقط فئة المنتفعين من الاحتلال وأجهزته القمعية. إن معسكر «أنصار 3»، أخرج إلى حيز الوجود لتحقيق أهداف عديدة سواء عبر شروطه المعيشية والغذائية والصحية والنفسية، وخلال نظام يومي قمعي إذلالي، مع الاستفادة من حالة الطقس الصحراوية، والحار نهاراً والبارد ليلاً، وبُعد المنطقة عن المدن وعزلتها..

كل هذا وغيره، المخطط الإسرائيلي في عملية قمع واسعة كانت تدار في معسكر الاعتقال «أنصار 3» وغيره، بإدارة العقيد «ديفيد تسيمح» الذي قاد حملة اقتحام وقتل يوم 1988/8/16 على معسكر «ب» رقم واحد وسقط في هذا الاعتداء شهيدان وجرح 35 معتقلاً من جراء استخدام الأسلحة القناصة، وإطلاق النار على المعتقلين العزل المحاصرين داخل معسكرات من الشبك. هذه واحدة من طرائق القتل الجماعي ووسائل تحقيق كسر روح الانتفاضة في نفوس المعتقلين حيث راهن رابين على أن «أنصار 3» سيحقق له انخفاضاً كبيراً في منسوب المقاومة الشعبية الدائرة داخل المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية عام 1988.
وكانت سلسلة من الممنوعات ووسائل القهر تستخدم داخل هذا المعتقل المقسم إلى معسكرات صغيرة محاطة بأبراج الرقابة، والحرس والسياج والكلاب المتوحشة، يقبع في كل معسكر من هذه المعسكرات حوالي المئتي شخص موزعين على ثمانية أو ست خيام أقيمت بطريقة يسهل معها قمع واذلال المعتقلين من خلال استخدام شروط الحياة ضدهم وخاصة النواحي الغذائية، يقابلها جوع مستمر، وتسمم لعشرات الحالات من المواد الفاسدة التي تقدم للمعتقلين مجبرين على تناولها من شدة الجوع .. فقدان العناية الطبية والصحية، علماً أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي اعتقلت في هذا المعسكر آلاف المواطنين من كافة مدن وقرى ومخيمات فلسطين المحتلة، من كافة الأعمار: 15 عاماً حتى ما فوق السبعين عاماً. ناهيك عن حرمان المعتقلين معرفة أو سماع أيٍّ من الأخبار عن ذويهم وأقربائهم وأبنائهم الخ.. كذلك منعت زيارة المعسكر المجهول المكان الغريب والعجيب النفسية والعقلية التي دعت الحاجة إلى إقامته في ذلك الوقت والمكان والشروط.

وكان اليهود يمارسون عقدتهم في معسكرات النازية أوشفيتس وغيرها من معسكرات الاعتقال النازية التي وضعت بها مجموعات اليهود إبان الحرب العالمية الثانية في أوروبا، تماماً هم نفس الأشخاص الذين خططوا لإيذاء الروح الفلسطينية وإنسانها الصابر على كل ممارسات الإحتلال الصهيوني الفاشي.
وكان يتبع نظام العدد الذي كان الإسرائيلي يعتبره طريقة لإذلال وتحطيم نفسية المعتقلين يومياً أربع مرات، وأحياناً خمس وست مرات، منها ما هو الساعة الثانية صباحاً وفي منتصف الليل كان يقوم عدد من الحراس الجنود والضباط، باستدعاء المعتقلين للذهاب إلى ساحة المعسكر بهدف إجراء عدّهم، وهو الطريقة المخترعة من جانبهم وهي أن كل معتقل يدخل هذا المعسكر يعطى رقماً بدل اسمه ويتم التعامل معه ومناداته على أساس الرقم مما يعني ضرورة حفظ الأرقام عن ظهر قلب وإلاّ ....؟! وبالتالي يصبح اسمك رقماً...؟!
كما أن سلطة القمع داخل المعسكر تقوم بهذا الإجراء جلوساً وقرفصاء واليدان خلف الرأس وعليك أن تجيب الضابط الذي يناديك برقمك وهكذا تجلس تحت أشعة الشمس الحارقة في صحراء النقب لمدة ساعة أو ساعتين ليتم إحصاء معسكرك المقيم به عنوةً.

وراحت رحلة العذاب تطول في هذا المعسكر إلى حدّ لم تعد النفوس تحتمل، وكذلك الدعوات داخل المعتقل من جانب المناضلين تتعالى إلى ضرورة اللجوء إلى السلاح التقليدي للمعتقلين لمواجهة ما يجري من قمع وعذاب ومعاناة، وهو اللجوء إلى الإضراب عن الطعام، كاحتجاج على هذه السياسة، وخاصة عمليات الضرب المبرح التي استخدمها ضباط المعسكر بحق المناضلين في زنزانة خاصة معدّة، لتنفيذ عمليات الضرب المشهورة باسم الفروجه و«البنانا»، والشبح تحت أشعة الشمس إلى أن تسقط على الأرض منهكاً.
لقد كانت هذه المعسكرات تدار بإشراف سلطات جيش الاحتلال، وهذا مختلف تماماً عن إدارة السجون في إسرائيل، وأمام رفض إدارة الجيش للمعسكر السماع إلى صوت المعتقلين الرافض لهذه الحياة الصعبة وشروطها الوحشية، من جهة أخرى، حالة المعتقل تغلي أربعاً وعشرين ساعة بالغضب، والاستنفار، وهذا ما لم يمكن العيش في ظله لمدة سنوات أو لمدة أشهر، وبالتالي كان لا بد من التفكير بوضع حلول لصالح المعتقلين الذين يعاملون من إدارة عسكرية مخصصة لهذه المهمة.

أي أن الإدارة العسكرية لحياة مدنيين جلبوا من مناطق سكناهم الجبلية ووضعهم فجأة واحدة في معسكرات في الصحراء، من ناحية أخرى شدة الهجوم القمعي الذي يشنه جنود وضباط الاحتلال المعتقلين. بالمقابل كان مهمّاً جداً أن يعرف الجميع أن وجود عدد كبير من المعتقلين الفلسطينيين المجبرين والمحترفين كان من إحدى ركائز المواجهة مع قوة الاحتلال داخل معسكر الاعتقال «أنصار 3» .
هؤلاء الرجال منهم من أمضى سنوات عمره داخل أسوار السجون الإسرائيلية سابقاً وأطلق سراحه سواء في عمليات تبادل الأسرى أو بسبب انتهاء مدة محكوميته. كان هذا الأمر له حضور كبير في صراع

الارادات المفروض على هذا المحور من كفاح الانتفاضة المجيدة آنذاك، مما يعني أن المعتقلين كانوا ينظّمون صفوفهم ويرتبون أوضاعهم لمواجهة هذا التحدي وأخطاره التي تستهدف حياتهم وكرامتهم وعزتهم. وإلاّ لماذا أقيمت هذه المعسكرات القمعية في الصحراء... فقد عمل المعتقلون على تنمية الروح المعنوية والاجتماعية في أوساطهم وعززوا اهتماماتهم ونقلوا التجربة من داخل السجون إلى المعسكرات الاعتقالية من كافة النواحي، الأمنية ومواجهة الشين بيت (المخابرات الإسرائيلية العامة). ومحاولات القمع والعقاب الجماعي، وغيرها من محاولات الإذلال والقهر.

لقد كان لتنظيم صفوف المعتقلين الذين أصلاً ينتمون إلى تنظيمات وأحزاب سياسية نضالية معروفة على الساحة الأثر المهم في إدارة الصراع، إدارة قوات الاحتلال داخل المعسكر، بالرغم من أن كل الأساليب وأشكال النضال الاعتقالية التي كانت تعتمد في السجون الإسرائيلية لم تكن صالحة في مواجهة التحديات داخل المعسكرات، علماً أن الإضراب عن الطعام، كان يواجه بردة فعل قوية وعنيفة من قبل الجنود والضباط (السجانين) مما كان يعني الحذر والدقة حين اللجوء إلى هذا السلاح التقليدي والعزل والذين لا يملكون إلا إراداتهم ووعيهم لحالة الصراع القائمة مع قوات القمع والإذلال.

معسكر الإعتقال «أنصار 3»، وغيره من المعسكرات الأخرى التي أقيمت لحبس شعب بكامله أو بالآلاف ما كان إلا تأكيداً على صلف ونذالة الفكر اليهودي الصهيوني ووسيلة ترجمته إلى حيز الوجود إسرائيل (العنصرية).. السجون والمعتقلات كانت تأكيداً واضحاً على مرض اليهود وقياداتهم في هذه الدنيا مهما كان سبب اشكالاتهم وقذارتهم .. ولا يمكن أن تشكر إسرائيل وحكوماتها ومؤسساتها وجنودها وضباطها وحتى شعبها على ما ألحقوه من أذى بأبناء الشعب الفلسطيني، لأنه كيان لا أخلاقي والسجون والمعتقلات شواهد كبيرة على هذه القذارة.

ماذا تركت هذه الدولة من انطباعات عنها لدى أكثر من نصف مليون فلسطيني دخلوا السجون في إسرائيل واكتووا بنارها.

معتقل الفارعة، وبيتونيا، و«أنصار 3» في صحراء النقب، ومجدو، وعتليت، وشبكة السجون الأخرى التي كان آخر تطوراتها القمعية في العقل الإسرائيلي إخراج سجن (نفحة) الصحراوي إلى حيز الوجود، للمضي قدماً بإلحاق الأذى بالإنسان الفلسطيني، سواء كان شاباً، أو صبياً أو طفلاً، أو عجوزاً أو امرأة، شاركوا بكفاحهم لدحر الاحتلال وتحقيق الحرية لشعبهم وأمتهم العربية والإسلامية، كل هؤلاء لهم قصة طويلة مع نهج وفلسفة القمع اليهودي الصهيوني في إسرائيل.

معسكر الاعتقال «أنصار 3»، سيبقى من المعتقلات الإسرائيلية القمعية والتي يشهد عليها التاريخ والبشر، فقد دخل معسكراته آلاف المعتقلين وتحرروا منه، ليكون القصة والتجربة والإرادة والشاهد على جرائم إسرائيل التي ستنال عقوبتها يوماً من الأيام وهذه شهادتي عن معسكر الاعتقال «أنصار 3» .

* مدير عام التوجيه الوطني شمال الضفة الفلسطينية.

لأمسٍ مَضى ولم يَنته

وسيم الكردي*

أية مسافة تلك التي تفصلنا الآن عما كنّا فيه قبل اثنتي عشرة سنة؟ فأية مسافة طواها الزمن، وأية مسافة تطويها الأرض؟!

ألعربة الذاكرة ما يكفيها من الليل كي تمتح من تلك الأيام ما يؤلب الروح، ويغوي النفس؟! تلك الأيام الّتي يمضي عليها الآن من السنوات ما أشغلنا عنها بها وفيها، وكأننا قطعنا من الروح زبدتها، وآخينا انعتاقا زائفا لا يغدق علينا بما يمكن أن يتيسر من الانطلاق في فضاء لا إسار فيه لأجسادنا وأرواحنا...

هناك في تلك الأيام كنت هناك؛ هناك في «أنصار 3» هناك في النقب؛ حيث الرمل يطوي ما تبقى من رائحة الأرض، وحيث الريح تعصف بما تبقى من الكلمات في شفاه الروح.

اللذة الوحيدة الممكنة هي أن أطلق الروح بعيدا عن إسارها، كنت أعصر نفسي كي أدرك، وبكل حواسي، وفي كل لحظة أنني سجين، وكما كان يقول رايتنباغ: «السجن يعلمنا أننا سجناء» وبغير ذلك، فإن السجن سيبدأ بامتصاصي، بتذويبي فيه، بتحويلي إلى كائن راغب في البقاء فيه. إذن، لا ألفة مع هذا المكان حين يصير سجنك، المكان هو لك، هو أرضك، هو جزء من ذاكرتك، قد تغنّي له فتقول:

في أرضنا أرض النقب | أنصار علمنا الغضب
أنصار يورق مشعلا | وعيوننا تلد اللهب
هم سيجوك بنادقا | وغداً نسيجك العنب
نسقيك حرًّ دمائنا | فتضج وردا يا نقب

ولكنه حين يغدو سجنا، فإن المكان ينوضع في سياق يدفع بك إلى أن تلعنه... مكانك يوظف ضدك، يُستعدى عليك... ولا تقوى على القول فقط أن المكان لا حيلة له فيما أنت فيه، لأن لا حيلة لك في أن

تراوغه وتشاكسه، وربما أن تغويه... أنت لا حيلة لك عليه سوى ما قدر لك من رغبة في الانعتاق منه...يسوقونك إليه، وحين تحل فيه سترى الموت قادما إليك من كل اتجاه، لا تدرك حينها أن لك طاقة لا تعرفها، طاقة لا تظهر لك إلا حين تكون في تلك اللحظة المثقلة بكل ما يباح أو يستباح، فَتَخَيُّلُ اللحظة قد يفضي إلى أمر، ولكن المرور بها قد يفضي إلى أمر آخر... وهذا ما كان؛ ففي اللحظات الأولى لإدخالنا ذَلك المخيم العسكري، بدا لي الأمر سرياليا تماما، وكنت أقول إن ما يفعلونه ليس جديا تماما، ربما يريدوننا هنا لساعات، أو لأيام معدودة، يقصدون منها أن يدخلوا الروع في قلوبنا، أن يكسروا طاقة الانتفاضة فينا، أن يهشموا رغبتنا في الانعتاق منهم. ولكن لا نحن بقينا لأيام فقط، ولا هم كسرونا... أدركت وقتها أننا، ربما جميعنا، لدينا من الطاقة ما يكفي لكي تؤاخينا شهورا وشهورا. وما نغنيه لذلك المكان كان، ربما أيضا، غناء لغد.

في اللحظات الأولى لدخولنا إلى ذلك المكان الذي يسمى مجازا سجنا، تسللت ومعي حفنة أقلام، بدا لي مرعبا لو أنها ستكتشف، بدا لي الأمر مذهلا لو أننا سنقضي أيامنا هنا دونما أقلام.. ولكن أسنكتب على الرمل أم على سطوح الخيام أم على أجسادنا؟!

أتذكر يوم حرثنا الرمال
بعصرٍ
يلامسُ وجه المساء
وكنا نفتش بين الدقائق
عن علب لفظت تبغها
واستراحت
وأرخت على صفحة الرمل أجسادها
ننفض عنها التراب
نوسد فيها مكانا لعدو الكلام
ولكن لماذا؟!
وليست تساوى القصائد
عند انطواء المعاء
بكسرة خبز ورشفة ماء.

كم كانت علب السجائر المدفونة في الرمل مفيدة لرغبتي في أن أكتب عليها؟ ليس رغبة في ابتلاء الكتابة أو كتابة القصيدة، بل كانت ضرورية لتكون طائري إلى خارج هذا المعسكر، فلكي أظل هنا حيا، أقصد حيا بمعنى آخر مختلف تماما عن مجرد أن أعيش هكذا كما تعيش الكائنات، بل أن أحيا، نعم أن أبقى حيــاً، فلا بد من أحمل نفسي على أجنحة الخيال، وأبتعد عما قد ترتكبه النفس الخبيثة من رغبة في التكيف والتأقلم ليس مع فكرة السجن فحسب بل مع تجسيداتها أيضا، هناك كانت الورقات القليلات كافيات كي أرتب عالمي كما أشاء، عالم انبنى على أن فكرة الخلاص آتية، وهذا الخلاص ممكن الحدوث

في كل لحظة، وكنت أكتب عن خارج أنا فيه أكثر مما كتبت عن داخل نحن فيه ..

أرخيت قلبي في كفيك ينطلق لما تراءف منك الخافق العبقُ
قد كان في الرمل مأسورا يلوذ به سر الرمال وريح البحر والشفقُ
حتى أتيت طيوفا ما لها عدد تأوي إليّ، فباح السر والغسقُ
جدّلت عشقك في الشريان نرجسة من نسغك العذب رقّ العود والورقُ
زاوجت طيفك حتى صار قافلة تستنهض القلب حتى لاحت الطرقُ
يسري يطوف فلا الأسلاك تمنعه في قلبك الرحب طار النابضُ الخفقُ

حينما يأخذنا الزمان بعيدا عن تلك اللحظة، ونستعيدها بذاكرتنا فقط، ولا نستعيدها بأجسادنا، فالأمر يبدو مختلفا تماما، كيف يمكن لك أن تكتب الموت، أو تكتب الحياة في شهادة عن السجن؟! كيف يمكن لك أن تكتب البرد والليل والصحراء والجنود والجنون والعشق والوله والحب والكره، والأمزجة، وأنت، والآخرين، والرسائل، والماء، والنكات، والأغاني، والبكاء، والصمت، واللعنات، و...و... و في شهادة تقول ما جرى؟ إن الشهادات غير كافيات ليقلن تلك الأيام، ربما نص المخيلة إذا ما انكتب قد يستطيع ذلك، ولكي ينكتب ذلك على صفحات منقولة من صفحات العظام، فإنه يحتاج إلى مخيلة أكثر مما أعتقد، ولذلك فأنا الآن أتعلم ترويض الخيال، فهل أستطيعه؟ ربما، من يعرف؟ فكما كنا لا نعرف بأننا نستطيع أن نبقى هناك في تلك الصحراء لأكثر من أيام معدودات؛ فإنني لا أعرف ما إذا كانت المخيلة ستحملني هذه المرة، لا انفكاكا من إسار سجن، بل انفكاكا من مخيلة ناجزة، وبحثا عن مخيلة لا تكتمل أبدا، وتسأل هل من مزيد؟!

كانون الأول 2000

---

* شاعر فلسطيني يقيم في رام الله.

انتصار القصيدة

عبد الناصر صالح*

من أين أبدأ يا ترى؟ هل أبدأ من الحلم الذي أقلّني من الخيمة / الزنزانة إلى طولكرم على ظهر سحابةٍ حبلى بالمطر.

أم أبدأ من القصيدة، وهي تعيد الحياة إلى الرمل، وتبعث في ذراته نشوة الانطلاق.

يبدأ الشاعر رحلته إلى صحراء النقب بحثاً عن قصيدته الجديدة، بحثاً عن جذوره الفلسطينية وعن أصابع أجداده المدفونة في الرمل.

كيف سيكتب الشاعر في ظل هذا الواقع الجديد لـ السجن الممتلئ بالخيام وبرد آذار والجنود المدججين بشهوة القتل. سأكتب على الرمل نشوة القصيدةَ الأولى وسأنحت بأظافري حجارة الصوان المنتشرة لكي تنطق شعراً وتغني مثلي لحبيبتي الأولى .

* * *

في «أنصار 3» يتحوّل الإنسان إلى رقم، يدخل جنود الاحتلال قسم رقم 5 في الوحدة أ يحملون قائمة بأسماء المعتقلين وأرقامهم ليتأكدوا من عدد المعتقلين الذين تجاوزوا الثلاثمائة إنسان ويقارنوا الاسم بالرقم، بالشكل أيضاً، خمس مرات يومياً يمارسون هذا النشاط ليثيروا الخوف والتساؤل في نفوس الأسرى عن المصير الذي يخبئه المحتلون لهم.

– انتم معتقلون إداريون، قال مسؤول أمن المعسكر «أيتسك» بصوته الأجش، وبلغة عربية ركيكة.

– إلى متى؟ يسأل أحد الإخوة الشباب.

– حتى تنتهي الانتفاضة ونلقي القبض على كل الذين يقذفون الحجارة على جنودنا.
– يضحك الشاب، ربما يستمر الوضع لعشر سنوات أو أكثر ... ماذا يثرثر هذا الرجل ... هل أصيب بالجنون؟
قلت للشاب:
– حتى يتحقق ذلك، عليهم أن يلقوا القبض على الشعب الفلسطيني كلّه ويزجّوا به في السجون.
قال آخر:
– أية سجون ستتسع لاعتقال شعب بأسره.
قلت: حتى لو فعلوا ذلك سنلقي عليهم الحجارة من داخل السجن.
يضحك الإخوة.

* * *

في 1988/4/2 وصلت الحافلات العسكرية التي تقل أكثر من 600 أسير إلى معتقل النقب. معظمهم جاءوا بهم من سجن عتليت القريب من حيفا. كنت واحداً منهم. أمضيت في سجن عتليت 18 يوماً بعد أن داهمت بيتنا في منتصف الليل قوة عسكرية ورجال مخابرات. واقتادوني معصوب العينين وموثوق اليدين خلف الظهر إلى غرفة صغيرة أشبه «بالبركس» في مركز الجيش الإسرائيلي بطولكرم. وجدت أمامي في هذه الغرفة أكثر من 30 شخصاً معظمهم من الأصدقاء، كنت أتعرف عليهم من خلال أصواتهم، كان منهم طلبة جامعات وشباب يافعون وكبار السن وأسرى سابقون أمضوا في السجون أكثر من خمسة عشر يوماً. ثلاثة أيام مرّت ونحن على نفس الحال... معصوبي العيون وموثوقي الأيدي خلف الظهر لا يفكون وثاق أيدينا إلاّ عند قضاء الحاجة فقط.
وصلت الحافلات إلى النقب في ساعة متأخرة من الليل، وعلى الرمل البارد المبتل بالماء جلسنا جميعاً القرفصاء حتى الثامنة صباحاً، كان الجنود يصرخون عند سماع صوت أحدٍ منا؟
– شيكت (اسكت)، ستوم تبي (أغلق فمك).
ويحاولون ترويعنا بإشهار بنادقهم باتجاهنا في حركات تمثيلية تنم عن كراهية مستفحلة وحقد دفين.
رأسي وظهري يؤلمانني جداً، شعرت بدوار شديد كدوار البحر، عيناي لا تقدران على التحديق.
في الطريق من عتليت إلى النقب، كنت أجلس على المقعد الأمامي من الحافلة وبجانبي د. حسن خريشة، بعض الجنود في مقدمة الحافلة وقفوا بجانب السائق وعلى مقربة مني. كنت أشعر أن شيئاً ما سيحدث لي، طلب مني أحد الجنود أن أشتم الرئيس ياسر عرفات، فرفضت على الفور، كرّر الطلب مرّات عديدة، وكنت أرفض في كل مرّة، كان يحمل في يده اليمنى عصا غليظة.
وضع مقدمة العصا على جبيني وقال بلهجة عراقية غير واضحة:
– للمرة الأخيرة يا ... اشتم ياسر عرفات!
قلت له:

– اشتم اسحق شامير؟
قال بغضب:
– أتقارن ياسر عرفات باسحق شامير؟
شامير رئيس وزراء إسرائيل ..
قلت له بتحد:
– وياسر عرفات رئيس الشعب الفلسطيني ولا يمكن لأحد منّا أن يشتمه، كلنا نحبّه.
كنت أعرف نتيجة هذا التحدي، فقد الجندي أعصابه وانهال على رأسي ضرباً بالعصا ثم على ظهري ورجليّ وهو يكيل اللعنات على ياسر عرفات وعلى الشعب الفلسطيني.
شعرت بأن رأسي يكاد يتفجر وظهري ينكسر من شدّة الضربات، كنت أتألم وأقاوم حتى لا أفقد توازني، ارتحت بعدها، فلم أحقق له مبتغاه، أنا الآن في مقام المنتصر، لقد انتصر الصوت على الخوذة وانتصرت القصيدة على الرصاصة.

* * *

أبدأ في الحديث عن القيد، كيف تتحول القيود التي تدمي أيدي الأسرى إلى أوسمة، كيف تلمع القصيدة كالبرق في ذهن الشاعر المنفتح على واقع جديد بدأت باستعادة المشهد واستنهاض القدرة على الكتابة.
قلت في نفسي يجب أن أكتب حتى أثبت وجودي، فالكتابة في رأيي هي الجدار الواقي من الموت. الموت نفسه يعني الجفاف الشعري.
بدأت باستعادة المشهد وتجميع الصور، الآن تتضح الرؤيا في ذهني، زارتني القصيدة مخترقةً المسافات والأسلاك الشائكة ومعسكرات الجنود لتسكن قلبي.

* * *

خيمة رقم 30 في معتقل النقب شهدت ميلاد ديواني: «المجد ينحني أمامكم» معظم قصائد الديوان كُرست لتمجيد الانتفاضة الكبرى والشهداء وقاذفي الحجارة في وجه جنود الاحتلال. والبعض الآخر وصف أوضاع الأسرى، والتأكيد على الوحدة والصمود والفعل الثوري.
كنت أكتب القصائد على ورق سجائر (اسكت) الإسرائيلية، حيث لم تتوفر الدفاتر والأوراق. وكنا نهرّب الأقلام بواسطة المحامين الذين يقومون بزيارتنا بين الفينة والأخرى.
كنا أشعر باللذة عند الانتهاء من القصيدة، أشعر بنشوة النصر على الجنود الذين يحاصروننا.
فكتابة قصيدة في واقع مخيف كواقع معتقل النقب أشبه بتصنيع قنبلة. أين سنحتفظ بالقصائد في حالة اقتحام الأقسام الخمسة من قبل جنود الاحتلال وتفتيش الأسرى بحثاً عن «مواد تحريضية»؟
كنت أخبئ قصائدي تحت الرمل وأضع فوقها حجراً كعلامة على موقعها. وبعد انتهاء معركة التفتيش

وخروج الجنود من القسم، أنبّش في الرمل لأخرج القصائد.
كنت أشعر في كل مرة أنني أبحث عن أثر لوالدي، ساعة يده مثلاً أو أحد أقلامه أو إحدى قصائده. فقد عرف والدي صحراء النقب قبلي بسنوات طويلة، عندما قامت السلطات البريطانية باعتقاله ونفيه مع عدد من الوطنيين إلى معتقل «عوجا حفير» في النقب إبان ثورة عام 1936 وأمضى فيه شهوراً عديدة، أو أنني سأجد أثراً لأجدادي الكنعانيين الأوائل الذين سكنوا الساحل الفلسطيني وأنشأوا حضارتهم عليه.
شعرتُ بعلاقة حميمية بيني وبين الرمل، فهو الملجأ الوحيد لحفظ قصائدي من المصادرة.
كان الإخوة والرفاق أسرى فصائل الثورة الفلسطينية يحفظون أشعاري عن ظهر قلب، ويرسلونها مكتوبة على ورق السجائر في أكياس النايلون المخصصة للخبز، بحيث يضعون القصيدة داخل الكيس ومن ثم يضعون حجراً ويربطون الكيس حتى يصبح بحجم البيضة ثم يقذفونه إلى القسم الآخر. إن وضع الحجر داخل الكيس يمكنه من الطيران والوصول إلى الهدف، كانوا يفعلون ذلك أيضاً في حالة إرسال بيانات سياسية أو أية أوراق تنظيمية.
تطير القصائد من فوق رؤوس الجنود كحمام زاجل وهم ينظرون إليها، عاجزين عن إسقاطها، إنها معركة التفوق الجوّي للشعر الفلسطيني على مضادات جيش الاحتلال.

* * *

في شهر نيسان من العام 1988 وفي قسم 5 من الوحدة أ، بدأ الفعل الثوري والفعل الشعري، تشكّلت اللجان التنظيمية لحركة فتح واللجان الثقافية واللجنة النضالية العليا، التي كانت مهمتها التنسيق مع الفصائل الفلسطينية ووضع الخطط لمواجهة إدارة السجن وسياستها القمعية التي تنتهجها حيال الأسرى.
فقد ضمت اللجنة التنظيمية لحركة فتح كلاً من: مفيد دراغمة، خليل كراجة، محمد صوّان، أنيس بريوش، عبد الحكيم خرّوب وعبد الناصر صالح. وتم انتخابي ممثلاً لحركة فتح في اللجنة النضالية العليا طوال فترة اعتقالي الإداري.

* * *

كنت أقوم بتنظيم الندوات الثقافية والسياسية والأمسيات الشعرية في خيم الأسرى، من أجل تعميق الثقافة الوطنية لدى الأسرى وتعزيز وحدتهم الوطنية.
وكنت أقرأ قصائدي في الخيام من أجل شحذ الهمم وبث العزيمة وروح الصمود والمقاومة في نفوس الأسرى. والهدف هو الارتكاز إلى قاعدة قوية متماسكة في معركتنا مع النازيين الجدد.
وأشيد، بهذه المناسبة، بدور الدكتور الصديق عبد القادر قاسم في هذا المجال، الذي لم يتوانَ لحظة عن

تقديم خلاصة فكره وثقافته للأسرى، من خلال الندوات واللقاءات السياسية والفكرية التي كان ينظمها لرفع المستوى الفكري والثقافي للأسرى وتشكيله لجان محو الأمية التي قامت بتدريس الأسرى الأميين بحيث أصبحوا يتقنون القراءة والكتابة.

*　*　*

ينطلق الشعر أكثر فأكثر، بحيث يصبح الزاد المعنوي للأسرى في ظل غياب الكتب الثقافية والسياسية والأدبية، كنت أكتب في ساعات الصباح. أجلس وحيداً في زاوية الخيمة رقم 30، وأدخل في الحالة الشعرية، حالة التوحّد مع القصيدة روحاً وجسداً، تطلّ عليّ القصيدة بوجهها الجميل الساحق، تحلّق بي في فضاءات الإبداع الشاسعة.

أشعر كأني منبتٌّ عمّا حولي. لا أسمع إلاّ رجع صدى القصيدة يطرق أذني، إنها حالة الهيام والاندماج مع جسد القصيدة المخمليّ الذي يفوح عبيراً أنثوياً يحيطني من الجهات الأربع.

أيتها القصيدة، يا لغة البحث المتجدّد في جسد الرمل، يا أيقونة الذكريات، يا وجعي الحبيب الوحيد، يا بشائر اليقظة القادم من هواء الصحراء، يا إطلالة الشمس في الخيمة المكفهرّة، يا غيمة الروح الحبلى بالمطر والكلام.

ها أنذا أتشكل في مرفأ عينيك، أعيد تشكيل ذاتي، لأكتب القصيدة التي .. لم تُكتب بعد ... قصيدة الغد.

*　*　*

في منتصف شهر نيسان، على ما أذكر، يخرج الشاعر المتوكل طه من زنازين رام الله ونابلس وطولكرم بعد أن شهدت هذه الزنازين وحشية المحققين وصلابة المتوكل، لم يعترف بالتهم التي وجهوها إليه .. لأنه المنتمي لفلسطين / الوطن، وفلسطين/ الأنثى التي عشقها من الوريد إلى الوريد. يصدرون أمر الاعتقال الإداري بحقّه ويقتادونه إلى معتقل النقب مكبلاً بالقيود والسلاسل ... والقصائد أيضاً.

أنه المتوكل، نعم، قلت في نفسي:

– ستبدأ المعركة، معركة الشعر في مواجهة القضبان.

يمرّ الشاعر المتوكل طه من الممر الرملي الذي يفصل بين قسم5 وقسم2 حاملاً في يديه «برشه» وبعض البطانيات المهترئة، يقتاده الجنود مرفوع الرأس، مبتسماً كعادته إلى الخيمة التي اختاروها له في قسم 3 من الوحدة أ.

من الزنزانة إلى الخيمة، وتبدأ الرحلة، رحلة الشعر ورحلة النضال. كان صوتنا يحطّم الأسلاك الشائكة عندما نتحدث من بعيد، وقصائدنا تبعث الاخضرار في جسد الصحراء.

في هذا الوقت بدأت رحلة المتوكل مع ديوان «زمن الصعود» ومطوّلة «فضاء الأغنيات».

* * *

المتوكل طه، الشاعر الحالم، يثبت للمرة الثانية، في معتقل النقب، أنه عصيّ على الكسر، وأن قصائده الملتهبة كرمل الصحراء، هي التي سوف تنتصر.
مارس الفعل الشعري والنضالي، فاقتادوه إلى الزنزانة القريبة جداً من خيمتي، واعتدوا عليه بالضرب المبرّح وعذّبوه.
– عذّبوا ما شئتم، لن تحصلوا مني على كلمة واحدة.
كنت أتحدث إليه طوال الوقت، لكي لا يشعر بالوحدة، فالأصدقاء جميعهم من حوله... والنضال مستمر ... والقامات منتصبة.
كنت أقرأ قصائدي بصوت عال حتى يتمكن المتوكل من سماعها .. أنها الوسيلة لتعزيز صموده في الزنزانة، ثم قرأت مقاطع مًن قصًائد له كنت أحفظها.
في اليوم الثاني نظمت قصيدة «الميلاد» وقرأتها على مسمع من المتوكل، كان الأسرى يحيطون بي تعبيراً عن ابتهاجهم بالقصيدة، التي في مضمونها ترفع الروح المعنوية للأسرى، وتحثهم على المزيد من القوة والصلابة.
بكيت ساعة إلقاء القصيدة، وفي زنزانته بكى المتوكل، أيضاً.
وبعد ذلك قامت إدارة السجن بنقل المتوكل طه إلى قسم ب البعيد عنا. كنت أستدعي روحه لأحدثها وهو يستدعي روحي لنكتب معاً قصائد الانتفاضة التي حوّلت الصحراء القاحلة إلى غابة من الزنابق والدُّفلى .. والشعر النابض بالحياة.

* * *

شعراء كثيرون أناروا فضاء النقب... ومضوا في ماراثون الصحراء الشعلة الأولمبية.
الشاعر الصديق وسيم الكردي الذي ساهم بشكل فعّال في إثراء الحركة الشعرية من خلال قصائده التي توثق للوطن والشهداء وتنضح أصالة ودفئاً.
والشاعر الصديق عدنان ضميري الذي لعب دوراً نضالياً هاماً بالإضافة إلى إبداعه الشعري... فقد رافقتني في رحلة الاعتقال .. ورحلة الشعر، في الطريق من سجن طولكرم إلى الصحراء.
كان عدنان ضميري مُمثلاً للأسرى بقرار من اللجنة النضالية العليا لحركة فتح، وقد لعب دوراً بارزاً في تشكيل الوعي الوطني الفلسطيني لدى الجيل الشاب وإرساء مفاهيم الوحدة الوطنية على أسس متينة.
قريب من القلب أنت يا عدنان، بحديثك العذب وابتسامتك العالية، وتواضعك الذي يعزّز علاقتك بالآخرين، يا أبيض القلب كالثلج، نحن أقوياء كذاكرة الزيتون وبسطاء كالحقيقة.

*   *   *

في شهر تشرين الثاني من العام 1988، خرجت من السجن. عدتُ إلى البيت لأرى عائلتي، والدي ووالدتي، بعد أن شرّد الاحتلال إخوتي في المنافي واعتقال شقيقي عياض.
عدتُ إلى طولكرم، الدافئة كحضن امرأة عاشقة، مُثقلاً بالشوق والحنين ... والشعر.

---

* شاعر فلسطيني يقيم في طولكرم.

«الجلجامشيون» .. كانوا هناك

محمد روحي *

كان رأس جوادك مطلوباً بأي ثمن، وكنت تحسّ أنك ملك الليل، لكن إخوة «أبو رغال» مكّنوهم منك، وظلّ الصهيل طليقاً في البراري الموحشة المؤنسة . وفي معتقل «الفارعة» لسورة «القارعة» نكهة أخرى، وطعم مختلف، إذ (ما الفارعة؟ وما أدراك ما الفارعة؟) .

اجتهدت أن تشيع بين رفاق الدرب والبرش، ما ادّعيت أيامها أنه «فلسفة المقاومة بالتخيّل» يدخل المحقق الأول، مدججاً باسمه الفني الناعم «أبو خنجر» ويشنّ عليك غارته الأولى، وتشعر أنه يشتهي أن يقطع منك الوتين، عندها تزمع أنك ستخوض معركة التحقيق، تحت شعار (أنا جذع زيتونة) ويترى عدد المحققين والجولات، وفي كل مرة تستميت للدفاع عن قيمة شعار جديد أنت خالقه .

أتذكر زمهرير هاتيك الليالي العاصفات المُرعدات؟ أتذكر ليلة أن ألغيت المحقق، محوته؟ صمدت ليلتها، لأنك تخيّلت غضون جبين جدك، وعزمت الدفاع عن أثلام وأخاديد وجهه الطيب الحنون، وفي ليال أخر: تخيّلت مرة أنك تحارب من أجل ضحكات رضيعك التي شطبت المحقق وتدفقت فملأت المكان، ومرة استحضرت امرأة خارجة للتوّ من الحمام، ومرّة تمترست خلف صدر طالبة ذات مريول أخضر، وأخرى ذات ثوب مشجّر، وأخرى ذات ثوب مُطرّز، ومرة اندلعت فيك العاديات ضبحا والموريات قدحاً، لأنك استحضرت لوحة الفنان الفلسطيني «إسماعيل شموط: المسيرة» .

وأذنت لخيالك الشرقي أن يرفرف ويطير: «فلسفة المقاومة بالتخيّل»، ذلك بطريقة استحضار اللذاذات الصاعقة واختزالها بشرايينك، بمخك، تكثيفها كرأس دبوس، كنقطة من سنّ قلم، تصغيرها كفرج نملة، ومن ثم تكبيرها بأقصى ما يمكن من عذوبة وحبّ، ومن شبق للحياة، لتصبح سيدة الكون، إلهة الدنيا .

لا أصعب ولا أعذب من أن تخلق عشتارك بنفسك، كي تحميها وتحميك .
وفي «الاسطبل» كرنفال الموت كان يصول ويجول، ألم تسخروا من الفهم السائد: أن الإنسان لا يستطيع الحياة دون ماء أكثر من ثلاثة أيام؟ أشاهد أنت على ذلك أيها الفتى اليانع «جمال سويطات»؟ .
ويرمون بكم من قبر الاسطبل لساحة الخيام، فيلحظ المثخنون ذوو الأجساد الناغرة الناعرة المتورمة، أن شارع جنين – نابلس قد شلّ: فلا حركة فيه – لإنسان ولا لبهيمة ولا ولا لحافلة – ولا نأمة . شُرّعت بوابة الاحتمالات: هل اغتالوا أحد قادتنا الكبار؟ هل انتقلت انتفاضتنا الشعبية لطور الكفاح المسلح؟ هل بدأت الحرب مثلاً؟ هل؟ هل؟ ...
وكان أن حُرّض أحد الصعاليك البواسل، على خطف جريدة عبرية من «سنترال» المعتقل بمهارة فائقة، فأحضرها خفية بحجة حماية راحة يده من أذن طنجرة الفول الساخنة المهولة، والمجلوبة من المطبخ البعيد، وترجم الأخ المهيب «رشيد منصور» ما معناه: قامت القيامة .
بدأت الحرب إذن؟
وزّعت أجهزة «الترانزستور» الصغيرة، والأقنعة الواقية للكيماوي على جميع الجنود وفُتح حوار مع مدير السجن .
* نريد أقنعة واقية.
في اندهاش:
– لماذا؟
* نحن نعرف كل شيء.
– ماذا تعرفون؟
* لقد بدأت الحرب .
ولم يكن بإمكانه إلا أن يعترف، وقال ببسمة عابسة مهشّمة:
اطمئنوا، صدام لن يضرب الضفة، عليكم أن تفهموا أننا نتنفس ذات الهواء، ونشرب ذات الماء، وقد نأكل ذات الخراء، حذار من القيام بأية مشاغبات، من هذه اللحظة بدأنا تطبيق قوانين الحرب، أتفهمون ماذا تعني قوانين الحرب؟ يعني «ما فيش يمه ارحميني، طخ بين العينين مباشرة» .
وهذا يعني، أيضاً، أنه بات إن رفعت طرف الخيمة، فستتلقى زخّات لئيمة من الرصاص الحي في صدرك. مخيم الفارعة أخذ يؤذّن كلما شاهد نيازك العراق تتهاطل، الله أكبر عرجت لما فوق السماء السابعة، لسدرة المنتهى، جعجعة زامور الخطر ابتلعت المعتقل بمن فيه، الخيام علب من سمك السردين، هاجس الموت اجتاح الجميع، أحسّ الكلّ أن «عزرائيل» «يكزدر» بيننا .
في النهار يتدافع سكان علب السردين بالمناكب، يتنافسون على من سيصل صنابير المياه للوضوء أولاً، استعداداً للصلاة من اجل ملاقاة وجه الله الذي بات وشيكاً ومحتّماً .
وزرع هذه الفكرة في النفوس وأذكاها، أحد الشيوخ الأفاضل، وبيّن أن التوبة النصوح تقبل من الإنسان حتى ما قبل الغرغرة، وكنت لا ترى الجموع المنضغطة إلا بين قيام وركوع وسجود، وقراءة باكية للقرآن، آسرة أخّاذة .

وفي الليل – ليل كانون الغاضب الموحش البهيم – حيث لا نور ولا نار، تمدّ يدك في فضاء الخيمة الحالك فلا تراها، كانت تُطلق بعض نكات الجسد الباسلة فتضيء عتمات النفوس، وتبل يباس القلوب، نكات تتساوى فيها الحياة مع العدم .

ويتلبسك عفريت فكرة الهرب «العدو الآن في منتهى الارتباك، وثمة ما يشغله عنا، الوقت موات كي تكون بين زوجك وأطفالك، من يدري ماذا سيصنعون بنا، يا روح ما بعك روح» وتردعك قناعة موازية (البطولة المجانية ليست بشهادة) وتحلم وعيونك مفتوحة، وتتخيّل: الجيش العراقي وهو يفتح لنا بوابات السجن .

لم يطل بنا المقام في معتقل الفارعة، رحّلونا الى معتقل «جنيد» وخلّفنا وراءنا: جراح الإخوة فاغرة أفواهها كالقناديل – لعلها تضيء ليل العرب – وأطرافهم وحناياهم محطمة، غادرناهم مصحوبين بصوت صراخهم المنبعث من بين فكوك الاسطبل وأنيابه (حيث العالم السفلي يا أنكيدو) وحواسنا تشرّبت رائحة دمهم الذي خثر والذي لم يتخثر، ومن معتقل جنيد الى المجهول المرعب .

وهكذا – لا أكثر ولا أقل – ألفيت بعد التحقيق، جوادك العظمي، مقذوفاً به في جهنم الصحراء، وعليك أن تتدبر، وإلا افترستك وحوش الموات، وفاتحة العشق كانت، أنك أطلقت غزلان الحواس، فجاست جسد الأرض المتصحّر، وطيّرت خيول الحلم، فراودتْ أرض الجسد الشموص عن نفسها، ولم يتأخر ردّ الحبيبة المتمنعة العبوس، إذ رقّت ولانت، ودعتنا بكل صراحة لشمّ عبق صدرها، عندها – فقط – بدأنا تأثيث المكان، بما يليق بها وبنا، فجلبنا جهاز الغزالة من قيعان ذواتنا السحيقة .

إنك لن تدافع أبداً عن مكان لا تحبه، ونحن أحببنا المكان .

وتشفق على أحفاد أبرهة، لأنهم ردّوك لأصلك الرعوي، وتبدأ فعلاً بالتخيّل أنك عنترة أو الزير أو الشنفرى، وما الذي سيمنعك ما دمت تتأبط وطناً أنت منفي فيه؟

وتعثرون بأعماقكم على «جلجامش» وبيده مفتاح الخلود: المقاومة بأي شيء، المقاومة بكل شيء .

وتنجنّ مسيرة العسل المرّ، فتحوّلون جهنم الصحراء لقفير نحل ربيعي، ولبيت من النمل العنيد، طوبى للبتول (شمخة) لأن نداءها أينع فينا وأثمر، وها نحن في منازلة مهولة مع ثور الأرض (خمبابا) يا جدنا الحبيب يا (انكيدو) البطل .

... وكان أن قاومنا: بالغناء، بالصمت، بالجوع، بالبوح، بالشبابة، بالدبكة، بالرياضة، بتعلم اللغات، بالرسم، بالكتابة، بأمسياتنا الفكرية والأدبية والسياسية، بمجلة التنظيم، بالنكات، بالفوازير، بالضحك، بالقص: أتحوّلنا لشهرزاد يا شهريار؟ ربما، بالحفر على الحجارة: أهو البحث عن نبتة الخلود يا «جلجامش»؟، أيضاً، ربما .

لا أسوأ ولا أحمق ولا أضرّ – للتاريخ أقولها – من كتابة الشهادات بطريقة سلق البيض، وأعني أية شهادات كانت، وتحديداً تلك التي عن تجربة السجون، كونها تستحق منا، أن تكتب على نار هادئة.

أجل، فثمة محاذير ومحرّمات كثيرة، للكتابة عنها تحت يافطة (ضيق الوقت والمسودة أيام قلائل وتكون في المطبعة) .

أما وقد فعلها «المتوكل طه» وانفجر – بغتة، بالنيابة عنا كلنا – كبرقوق نيسان، يخجلني ألاّ أرشقه،

ولو بوردة واحدة من حنوننا العندمي .

2000/12/16

---

* قاصّ فلسطيني يقيم في جنين.